خطبة صلاة الجمعة 5/ 11/ 2021 للشَّيخ الطَّبيب محمَّد خير الشَّعَّال، في جامع أنس بن مالك، دمشق – المالكي

(تحمل المسؤولية عند النبي ﷺ، وكيف نتحلى به)

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيِّئات أعمالنا، من يهدِهِ الله فهو المهتَدِ، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مُرْشِداً، وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ سيِّدنا محمَّداً عبده ورسوله، وصفيُّه وخليله، خيرُ نبيٍّ اجتباه، وهدىً ورحمةً للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليُظهره على الدِّين كلِّه ولو كَرِه الكافرون، ولو كَرِهَ المشركون، ولو كَرِهَ مَن كَرِه، اللَّهم صلِّ على سيِّدنا محمَّدٍ وعلى آله وصحبه وسلِّم.

أمَّا بعد: فيا عباد الله، أوصيكم ونفسيَ بتقوى الله تعالى، وأحثُّكم وإيَّاي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير.

قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب 21].

وقال سبحانه مخاطباً نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: 4].

أخرج الإمام الترمذي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**إِنَّ مِنْ أَحَبِّكم إِلَيَّ، وَأَقْرَبِكُمْ مِني مَجْلِساً يَوْمَ القِيَامَةِ: أَحَاسِنَكُم أخلاقاً**».

وأخرج الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال رسول اللهِ صلى الله عليه وسلم: «**إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ**» وفي رواية البزار «**مكارم الأخلاق**».

مع مطلع شهر ربيع الأول شهر ولادة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بدأنا سلسلة جديدة من الخطب تناسب الزمان والاحتياج عنوانها: (**أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم، وكيف نتحلّى بها**).

وهذه الخطبة الخامسة وعنوانها:

تحمل المسؤولية عند النبي صلى الله عليه وسلم، وكيف نتحلى به.

أيها الإخوة:

سبق أنّ الخُلق هو اسم لصورة الإنسان الباطنة، كما أن الخِلْقة اسم لصورته الظاهرة. (لسان العرب).

والأخلاق تكون فطرية وتكون مكتسبة، فمن فطره الله على خُلق حَسن فليحمد الله، ومن لم يجده في نفسه فليتدرب على اكتسابه، وهذا الواجب العملي الأهم على مستمع هذه السلسلة.

أيها الإخوة:

تُحمِّلُ الشَّريعةُ الإنسان مجموعةَ مسؤوليات تسمى التكاليف الشرعية، وهي مجموعة أوامر ونواهٍ لمصلحة العباد تنظم حياة النَّاس.

وقد عرف العلماء التَّكليف فقالوا: هو طلب الشَّارع ما فيه كُلْفَةٌ ومَشَقَّةٌ من فِعلٍ أو أمرٍ.

الصَّوم فيه كُلْفَةٌ وفيه مشقَّةٌ وأنت مسؤول عنه، الصَّلاة فيها كُلْفَةٌ وفيها مشقَّةٌ وأنت مسؤول عنها، رعاية الزوجة والأولاد فيه كُلْفَةٌ وفيه مشقَّةٌ وأنت مسؤول عنه، طاعة الزوج وحفظ الأولاد فيه كلفة ومشقة والزوجة مسؤولة عنه، ترك الخمر فيه كُلْفَةٌ ومشقة وأنت مسؤول عنه، ترك أكل الحرام فيه مشقةٌ وفيه كُلْفَةٌ وأنت مسؤول عنه، وهكذا سائر التَّكاليف.

فالتَّكليف: هو طلب ما فيه كُلْفَةٌ ومشقَّةٌ، والشَّريعة مجموعة تكاليف والمسلم مسؤول عن هذه التكاليف هل تحمل مسؤوليتها أو لم يفعل.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**كلكم راع، ومسؤول عن رعيته، فالإمام راع، ومسؤول عن رعيته، والرجل راع في أهله، وهو مسؤول عن رعيته، والمرأة في بيت زوجها راعية، وهي مسؤولة عن رعيتها، والخادم في مال سيده راع، وهو مسؤول عن رعيته، والرجل في مال أبيه راع، ومسؤول عن رعيته، فكلكم راع، وكلكم مسؤول عن رعيته**» [البخاري، ومسلم].

وإذا كان حديث اليوم عن تحمل المسؤولية عند النبي صلى الله عليه وسلم وكيف نتحلى بها، فإليكم هذه المواقف من السيرة العطرة.

1- تجمع كتب السير على أذية قريش للنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، على استهزائهم به صلى الله عليه وسلم وتكذيبه وحصاره وتهديده وتهجيره ومعاداته وحربه، وتطليق ولدي أبي لهب لبنتيه صلى الله عليه وسلم، وإشاعة الأراجيف عنه؛ فحيناً كذّاب، وحيناً ساحر، وحيناً مجنون، وحيناً يأتيه رئي من الجن؛ كلُّ هذا لأجل أمر واحد ؛ أن يتخلى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن تحمّل مسؤوليته في

تبليغ الدعوة فقد حمّله ربه مسؤولية تبليغ الدعوة ﴿يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: 67]

فما وهن رسول الله صلى الله عليه وسلم عن تحمل المسؤولية وما استكان، ومنذ أن قال له ربه ﴿قُمْ فَأَنْذِرْ﴾ [المدثر: 2] قام ولم يقعد ثلاثاً وعشرين سنة يحمل هم الدعوة وآلامَها، يريد أن يخرج الناس من الظلمات إلى النور، ومن الجهل إلى العلم، ومن الشقاء إلى السعادة، ويهديهم إلى صراط مستقيم، وقال قولته الشهيرة: (والله لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته، حتى يظهره الله، أو أهلك فيه).

وهذه واحدة في تحمله صلى الله عليه وسلم المسؤولية.

2- أخرج الإمام أحمد في مسنده عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: كانوا يوم بدر بين كل ثلاثة نفر بعيرٌ، وكان زَميلَ النبي صلى الله عليه وسلم عليٌّ وأبو لبابة، قال: وكان إذا كانت عُقْبةَ النبي صلى الله عليه وسلم قالا له: اركبْ حتى نمشي عنك، فيقول: "ما أنتما بأقوى مني، وما أنا بأغْنَى عن الأجر منكما".

فلم يرض صلى الله عليه وسلم أن يضع صاحباه عنه حمل المسؤولية في بذل الجهد في المشي، وأصرَّ على حملها.

وقل مثل ذلك عندما بنى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه المسجد فعاونهم رسول الله صلى الله عليه وسلم في حمل الحجارة.

ومثل ذلك في حفر الخندق ساعدهم في الحفر، وصار الصحابة يتأسون به صلى الله عليه وسلم في حمل المسؤولية ويرتجزون:

لَئِنْ قَعَدْنَا وَالنَّبِيُّ يَعْمَلُ لَذَاكَ مِنَّا الْعَمَلُ الْمُضَلَّلُ

3- أخرج الإمام البخاري عن أنس رضي الله عنه، قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم أحسن الناس، وأجود الناس، وأشجع الناس، ولقد فزع أهل المدينة ذات ليلة، فانطلق الناس قِبَلَ الصوت، فاستقبلهم النبي صلى الله عليه وسلم قد سبق الناس إلى الصوت، وهو يقول: «**لن تُراعوا لن تُراعوا**» وهو على فرس لأبي طلحة عُرْيٍ ما عليه سرج، في عنقه سيف، فقال: "لقد وجدته بحراً، أو: إنه لبحر".

فها هنا يجد رسول الله صلى الله عليه وسلم نفسه مسؤولاً عن حماية أبناء بلده وإبعاد الأذى عنهم فينطلق وحده مسرعاً ليدفع المفزع عنهم، ويعود ليطمئنهم أن لا شيء يستدعي الخوف والرَّوع.

فتحمل المسؤولية خُلُق النبي صلى الله عليه وسلم، وهو صلى الله عليه وسلم معروف به، والمتوقع أن يكون تحمل المسؤولية صفتَكَ، وأن تكون معروفاً بها.

ومفيد التذكير بأنّ فوز الدنيا والآخرة مرتهن بالقيام بالمسؤوليات على الوجه الأكمل، وخسارة الدنيا والآخرة في التهرب من المسؤوليات، فمن شمر عن ساعد الجِد أعانه الله ووفقه فكان من القائمين بما أوجب الله عليهم المفلحين في الدنيا والآخرة.

بلغ من العمر عشرين سنة ولا يزال إلى اليوم يأخذ مصروفه الشهري من والده ويتعثر في دراسته الجامعية، ولا يرضَى أن يساعد والده في العمل لا في الصيف ولا في الشتاء.

إنه الهروب من تحمل المسؤولية، وفوز الدنيا والآخرة مرتهن بالقيام بالمسؤوليات، وكلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته.

بذل والده الغالي والرخيص ليؤسس له محلاً لبيع الأجهزة الكهربائية وزوده بكل ما يحتاج إليه، ثم هو يتغيب يوماً عن دوام المحل ويتأخر في باقي الأيام وها هو بعد أربعة أشهر يصاب بالملل ويريد ألا يفتح المحل.

إنه الهروب من تحمل المسؤولية، وفوز الدنيا والآخرة مرتهن بالقيام بالمسؤوليات، وكلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته.

بينما رجل يرجع بسيارته القهقرى صدم صدمة خفيفة سيارة مركونة على طرف الطريق، نزل من سيارته ووضع بطاقة على نافذة السيارة المصدومة فيها اسمه ورقم هاتفه وطلب من صاحبها الاتصال وأنه مستعد لتحمل كامل التكاليف المترتبة على فعلته.

لما عاد صاحب السيارة المصدومة ورأى الصدمة ورأى البطاقة اتصل بالرقم ليشكر الرجل على تحمله المسؤولية وعلى وضعه البطاقة، ولم يرضَ أن يأخذ منه شيئاً.

إنه تحمل المسؤولية، وفوز الدنيا والآخرة مرتهن بالقيام بالمسؤوليات، وكلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته.

تريد الاتفاقيات الدولية رفع سن الطفولة إلى الثامنة عشرة، وعدم تحميل هؤلاء الشباب مسؤوليات العمل أو الزواج أو المساءلة القانونية، وفي هذا إضعاف لتحمل المسؤولية وتأخير كبير لحملها.

وفوز الدنيا والآخرة مرتهن بالقيام بالمسؤوليات، وكلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته.

عقد عليها منذ ستة أشهر وتريد الآن الانفكاك عنه؛ لأنها وجدته يريد إلزامها بأشياء لم تعتد عليها ومنعَها أشياء اعتادت عليها، وما علمت هذه الفتاة أن الزواج مسؤولية، وما دُرِّبَت على حملها وهي الآن تريد طلاقاً.

إنه الهروب من تحمل المسؤولية، وفوز الدنيا والآخرة مرتهن بالقيام بالمسؤوليات، وكلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته.

مات زوجها عنها وهي ابنة ثلاثين عاماً، وترك لها ثلاث بنات وثلاثة أبناء أكبرهم في الثانية عشرة، وترك لهم الدار التي يسكنونها ومحلاً مؤجراً بأجرة بسيطة وتعويض الوظيفة العامة، ومع أنها كانت شديدة الجمال وقد خطبها من خطبها ولكنها أبت إلا أن تحمل مسؤولية هذه الأسرة المادية والتربوية وتتفرغ لها، فكانت تعمل في الخياطة لتعيلهم وتسهر على تربيتهم لتعلي شأنهم، الآن وقد تخرج ابنها الأول طبيباً والثاني مهندساً والثالث تاجراً، وقد زوجت البنات الثلاثة زيجاتٍ كريمات، تقول لمن حولها إنها تعتقد أنها أدت الأمانة وحملت المسؤولية أفضل الممكن.

أخرج أبو داود عن عوف بن مالك الأشجعي رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **«أنا وامرأة سفعاء الخدين كهاتين يوم القيامة» وأومأ بيده الوسطى والسبابة، «امرأة آمت من زوجها، ذات منصب وجمال، حبست نفسها على يتاماها، حتى بانوا أو ماتوا».**

إنه تحمل المسؤولية، وفوز الدنيا والآخرة مرتهن بالقيام بالمسؤوليات، وكلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته.

هذه المواقف وأشباهها تنبيك عن فضل تحمل المسؤولية وشؤم الهروب منها.

ختاماً: كيف يتحلى المرء بتحمل المسؤولية؟

1- البدء باكراً بتحمل المسؤوليات المناسبة، فمن لم يبدأ باكراً فليبدأ الآن.

يقول اختصاصيو علم النفس: إنّ تحمل المسؤولية هو من الأمور التي يكتسبها المرء قبل البلوغ؛ كما أن تحمل المسؤولية شيء يزيد وينقص وينمو ويتعدل وقد يتلاشى مع الأيام.

و(من العبث أو إضاعة الوقت أن نتوقع تكوين المسؤولية الناجحة أو التي تهدف إلى خدمة الآخرين عند أناس لم يُبذَل لهم الحب، ولم يُمنحوا الاعتبار والتقدير الضروريين لبناء شخصياتهم السليمة.

وإن الأطفال الذين يسمح لهم ذووهم بأن يتحملوا المسؤولية والاستقلال في وقت مناسب تنمو عندهم الثقة بقدراتهم وبأنفسهم في مجابهة مواقف الحياة الصعبة).

2- التخفيف من اللهو واتباع الشهوات:

صرح جون كنيدي (عام 1962م): "بأن مستقبل أمريكا في خطر لأن شبابها منحل غارق في الشهوات، لا يقدِّر المسؤولية الملقاة على عاتقه، وإنه من بين كل سبعة شبان يتقدمون للتجنيد يوجد ستة غير صالحين لأن الشهوات التي أغرقوا فيها أفسدت لياقتهم الطبية والنفسية"

3- صحبة المتحملين للمسؤولية وهجر الاتكاليين.

أيها الإخوة:

في شهر ربيع أكثروا من الصلاة والسلام على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فإنه من صلى عليه صلى عليه ومن سلم عليه سلم عليه، وتدارسوا مع من حولكم حديثه صلى الله عليه وسلم وأخلاقه، وسنته وسيرته، ليكون النبي حاضراً فينا وتكون سنته ماثلة بيننا.

﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: 56].

والحمد لله رب العالمين